المقدمة

الحمد لله الذي تكفل بحفظ شريعته، وهيأ له أسبابه، ويسر للعلماء الاجتهاد في كل عصر، وفتح عليهم أبوابه، يذودون عن حياض الدين بصيانة أصوله، ويستجيبون لحاجيات الخلق بالنظر في مصالحهم، لا يجمدون على ظواهر النقول، ولا يغالون في استعمال العقول. نحمده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وبعد:

فإن من حسنات الصحوة الإسلامية التي شهدتها العقود الأخيرة، ما صاحبها وواكبها من جهود علمية في مجال إبراز محاسن الشريعة الإسلامية واكتناه أسرارها، ودحض الشبهات حولها، ونفي التأويلات الباطلة لأحكامها ومعانيها، وتسهيل سبل الإفادة منها، ببسط قواعدها وشرحها واستنباط أحكامها العامة والخاصة، وما إلى ذلك من مباحث قيمة تتيح للمهتمين استجلاء موقف الشرع من كل القضايا والنوازل، وتوفر لهم الجهود في البحث والاستقصاء. ومما انصب حوله الاهتمام وتوفرت له العناية، والتفتت إليه الأنظار، "مقاصد الشريعة"؛ إذ انبرت لها أقلام كثير من الباحثين، تاريخاً وجمعاً ودراسةً وتأصيلاً وتنظيراً، مما جعلها تتبوأ مكانة مرموقة بين بقية علوم الشريعة في البحث والدراسة، وانبهر بها كثيرون لدرجة تخطى الاهتمام بها حدود التخصصات الشرعية إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية، بل ما من مجال معرفي تعاير فيه الحقائق الإنسانية إلا ونجد لميزان المقاصد حضوراً، وهو اتجاه من شأنه أن يوحد وجهات نظر العلماء والمفكرين، ويقلل الاختلاف بينهم، فيجمع جهودهم بعد أن أنهكتها الاختلافات

المذهبية الفرعية، وضيق سوء فهم النص نظرهم، وعرقل خطاهم. وما توسع الاهتمام بهذه المقاصد إلا مؤشر إيجابي على هذا الأمل الذي طالما راود الغيورين على الإسلام، لربح هذه الطاقات وادخارها، وتجنيدها لرهانات أكثر خطورة وأهمية.

والواجب على المسلمين اليوم تحصين الجبهة الداخلية، حتى تستعصي على الاختراق، ولا يتأتى ذلك إلا بوحدة الصف وتوحيد الكلمة. ويتحمَّل العلماء في هذا الجهاد العبء الثقيل، وهو جهاد تربوي وتنظيمي، يربط المقاصد العليا لهذا الدين بأهداف الأمة، من كل جوانب حياتها، لتستعيد عافيتها وقوتها وعزتها، وتستمر في عمارة الأرض، وتقيم شرع الله فيها حتى يكون الدين كله لله، وهو غاية الجهاد، والمقصد الأسمى منه.

ولا يتحقق هذا الهدف إلا بالاستبصار بحقائق هذا الدين واستجلاء بصائره، والاستنارة بمقاصده، وبهذا يتحقق وعد الله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩]. ووعد رسوله ﷺ: " يحمل هذا العلم من كل خلف عُدوله ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين."[1]

ولا يجرؤ أحد على أن يبخس عصراً من العصور، أو مذهباً من المذاهب، حقه وحظه وإسهامه في اعتماد مقاصد الشريعة في تقرير واستنباط الأحكام، وهذا ما تكشف عنه الرسائل والأطروحات المنجزة مؤخراً، والكتب المؤلفة في الموضوع.

وقد لاحظت من خلال هذه الدراسات، خصوصاً تلك التي تتبعت تطور فكرة المقاصد، ورصدت مراحلها التاريخية، إغفالاً لمدرسة ذاع صيتها، وقدمت الشيء الكثير للفكر الإسلامي لدرجة ارتبط اسمها بإحياء التراث الإسلامي عامة، والمقاصد خاصة، وهي مدرسة المنار التي لها إشعاع ملأ الآفاق.

---

(١) ابن عبد البر. أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، الرباط: وزارة الأوقاف بالمغرب، ١٣٨٧هـ، ج١، ص٥٩.

وتتجلى أهمية الفكر المقاصدي في إبراز محاسن الشريعة، وتقريبها وتحبيبها للناس، وتوحيد وجهة المجتهدين، والقدرة على لم شمل الأمة وعلمائها، بدل الاشتغال بالخلاف وتشعباته، والمفاضلة بين المذاهب لدرجة التعصب لها في بعض مراحل الفقه الإسلامي، وهو الأرجى في الحسم في موضوع التعارض والترجيح في كثير من القضايا غير المحسومة فقهياً، إما لجدتها وحداثتها، ومن ثمّ خلوها من النص تماماً، أو لضعف الأدلة وعدم كفايتها في الترجيح في الحالات الأخرى.

كما أنه الموضوع الذي تفيد فيه ومعه كثير من العلوم الشرعية وغير الشرعية، وتتلاقح فيه الأفكار وتتكامل النتائج، وتتقارب الهوة بين التخصصات المختلفة، فتعم الفائدة ويستمر العطاء، وتتجدد المعارف، ويتيسر الاجتهاد الجماعي، وهو مقدم، على كل حال، على الاجتهاد الفردي. كما أن هذا الفكر يكشف لنا مع مرور الوقت، على ضرورات وكليات أخرى، لا تقل أهمية عن الكليات الخمس،[1] أو يعيد النظر في ترتيبها المعهود سواء داخل قسم واحد منها، أو بين الأقسام الثلاثة المعروفة؛ الضرورات، والحاجيات، والتحسينات، في كثير من أمثلتها، كما فعل طه عبد الرحمن الذي استعاض عن هذه المسميات بنظرية النية ونظرية الأفعال ونظرية القيم، وهو الذي عدَّ علم المقاصد علم الأخلاق الإسلامي.

ولهذا الفكر قوة في الإقناع والتأثير أكثر ما للحكم المجرد، خاصاً كان أو عاماً، ويعطي لسلوك الإنسان وتصرفاته معنى يستحث الجهد للائتمار أو الانتهاء، فهو يزيل الكلل ويسدد العمل، ومن عرف ما قصد هان عليه ما وجد.[2]

وكان اختيار مدرسة المنار لما لها من الزخم الفكري، والوضوح المنهجي، والشمولية في التناول، خصوصاً من الناحية المقصدية. وإنتاج المدرسة غزير

---

(١) فقد أضاف بعضهم الكون -مثلاً- ضرورة سادسة، بحيث ثبت من استقراء نصوص الشرع وجوب المحافظة عليه وعدم إفساده والقيام بحسن الخلافة فيه.

(٢) الريسوني، أحمد. **الفكر المقاصدي: قواعده وفوائده**، الرباط: جريدة الزمن، ١٩٩٩م، ص١١٥.
والجملة الأخيرة مثل عربي قديم في صلب المقاصد.

ومتنوع، يجيب عن أغلب الأسئلة المطروحة، ويقرن الجانب النظري بالعملي في حياة المسلم، مما يجعله جديراً بالدراسة والتحليل، سواء في فقه الواقع، أو فقه الموازنات والأولويات، أو فقه الأقليات،[1] أو فقه المقاصد...

ولما كان تراث المدرسة لا ينهض بدراسته بحث واحد، اخترت "تفسير المنار" لما فيه من بصمات واضحة للإمامين لروادها الكبار، ولاتصال تأليف هذا التفسير بوفاة السيد رشيد، مما يجعله وثيقة هامة لفكر المدرسة على طول خطه، ومتضمناً زبدة مؤلفات هؤلاء الأعلام. فهو أول تفسير، في نظري، احتفى بالمقاصد،[2] وبوأها الصدارة من اهتماماته، يعنى بمقاصد القرآن ومقاصد البعثة، والمقاصد الكلية والجزئية لأحكام الشريعة، كما أنه أقرب إلى التفسير الموضوعي،[3] وهو ما يسهل على الباحث رصد معالم الفكر المقاصدي.

فالموضوع بجملته، إذن، يستمد طاقته وحيويته وجِدّته من مقاصد الشريعة الإسلامية وأهدافها العليا السامية، كما فهمها كبار علماء الإسلام، وأصحاب المنار من هؤلاء الذين لا يقبل القفز عليهم، وبخسهم حقهم في الإحياء والتجديد.

---

(١) من خلال فتاوي المنار التي تضمنت كثيراً من هذا النوع.

(٢) نعم، تعرض لها بعض العلماء من قبل، لكن إما دون توسع وتتبع، وإما في غير كتب التفسير، ومن هؤلاء أبو الحكم بن برجان الإشبيلي (توفي ٥٣٦هـ) وفخر الدين الرازي (توفي ٦٠٦هـ) وأبو جعفر بن الزبير الغرناطي (توفي ٧٠٨هـ) والشاطبي (توفي ٧٩٠هـ) وبرهان الدين البقاعي (توفي ٨٨٥هـ) وجلال الدين السيوطي (توفي ٩١١هـ)... إلا أن بحثهم فيها انصب على مقاصد سور معينة، وبكيفية إجمالية، وغرضهم الأساس هو بيان التناسب بين السور، والبرهان على الوحدة الموضوعية لها، وإن كان البقاعي أقرب إلى الالتزام بالموضوع. انظر:

- البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر. **مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور**، الرياض: مكتبة المعارف، ١٩٨٧م.

(٣) فهو يحشد الأدلة كافة من آيات وأحاديث حين يتناول مسألة معينة كالربا والخمر والزنا. انظر:

- رضا، محمد رشيد. **تفسير القرآن الحكيم «تفسير المنار»**، بيروت: دار الفكر، ط٢، (د. ت.)، ج٢، ص٣٢١ - ٣٢٧، وج٣، ص٩٤ - ١١٤ مثلاً.